شعر الأطفال في التّراث الفنّي والأدبي العربي القديم

د. عمر يوسف
جامعة العربي التبسي - تبسة – الجزائر

الملخص:

تعالج هذه الدراسة صورة قصيرة لشعر الأطفال في تراثنا العربي القديم، في شكل شواهد شعرية متنوّعة تنبئ عن جذور أدبيات شعر الأطفال في أغراض مختلفة ومنظومات قصيرة حرص فيها الشعراء على الانسجام والإيقاع لأهميتهما في تطريب الطّفل وهدهدته وترقيصه، وتزفينه، وتدليله.

الكلمات المفتاحية: شعر الأطفال، الترقيص، الإيقاع، التراث

The summary

This study dealt with short hair picture of children in ancient Arab heritage, in the form of a variety of poetic evidence indicate about the roots of the morals of the children felt in different purposes short systems where poets keen on harmony and rhythm to their seriousness in the happiness of the child.

Keywords: *Poetry children; dance; rhythm; heritage*

تمهيد:

إذا كان الاستثمار في الطّفولة ورعايتها جديدا، فإنّ أدبها استنادا لهذا الاعتبار جديد أيضا، من حيث عمقه الفكري، وبعده النّفسي، إذ لم تهتمّ معظم الحضارات والأمم القديمة بتدوين حياة الطّفولة عندها، والأدب الموجّه لأطفالها "فشكّلت الثّقافة الشّفوية بما تحويه من خرافات وأساطير منطلقا أدبيا لظهور أدب الطّفل، كما كانت رصيدا معنويا هائلا لتأسيس النّمط الدّلالي الجامع بين الصّعوبة والسّهولة من حيث التّناول الخاص لهذه المعارف من جهة، والتّناول العام لها من جهة أخرى"[1]. وثبْت ذلك أنّ الكبار والصّغار على حدّ سواء كانوا يستمعون إلى الخرافات والأساطير الشّعبية في ليالي السّمر، وفي الأسواق وفي مختلف التجمّعات، على الرّغم من فارقة التّلقّي والفهم إلّا أنّ الأطفال كانوا يجدون فيها متعة، إلى جانب الكبار الذين يستلهمون منها العبر والمعاني.

وقد أجمع معظم المؤرّخين على أنّ "المجتمعات الإنسانية القديمة لم تكن تهتمّ بالطّفل إلّا بالقدر الذي يؤهّله كي يكون قادرا على تحمّل مسؤولياته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، ولم تكن مرحلة الطّفولة عندهم مرحلة مهمّة في ذاتها أو مستقلّة بمفردها...ومن ثمّ لم تكن هذه المجتمعات القديمة تعامل الطّفل إلّا على أنّه راشد صغير وكانت تتصوّر أنّ ما ينطبق على الرّاشد ينطبق على الطّفل سواء بسواء"[2]. ومن هذه النّظرة لم تفرد هذه المجتمعات أدبا خاصّا بأطفالها، وإنّما بسّطت لهم في أحسن الأحوال حكايات الكبار، وأساطيرهم الخرافية، التي ابتكرها الكبار عبر المسيرة التّاريخية.

ومع ذلك "تبقى الخرافات نوعا مرتبطا بأدب الأطفال، وتعود سردياتها المرّة تلو المرّة، إلى القصص المحورية في حياة الطّفولة...ومهما كان الغرض الذي وضعه الكبار فهي تبقى محور قراءة الأطفال. وإضافة إلى أخلاقها المحلّية، ونصائحها الخاصة، فإنّ الخرافات تعلّم أفكارا عن التّأليف ومبادئ حول جمهور مستمع، وأمثلة من حسن التّصرّف الكلامي...وباختصار تعلّم الأدب نفسه"[3] لأنّها كانت في معظم مضامينها تناصر الطّفولة، وتتمركز حول التربية ومقتضياتها، غير أنّها لم تحظ بالتّدوين والاهتمام حظو أدب الكبار، حيث أسقط الكثير منها من سجل التّراث الفنّي والأدبي، وبذلك أسقط أدب الطّفل عند كثير من الشّعوب في الحضارات القديمة.

وإذا كان هذا من شأن أدب الأطفال عامة، فإنّ شعر الأطفال عند الأمم القديمة كان عبارة عن ترديد ألفاظ موزونة، أجْل مداعبة الطّفل وترقيصه وقد توارثته الأمم جيلا بعد جيل

حتى لم يكن بالمستطاع تحديد إرهاصاته الأولى "فقد لوحظت ألفاظه عند معظم الشّعوب، متشابهة في بعض الأنغام والمعاني وإن اختلفت في بعض التّسميات"[4] ولا سيما وأنّها تعبّر عن ثقافة المجتمع الذي نشأت فيه وتعتمد في مشافهتها على اللّغة الأم التي تحمل خصائص ثقافة المجتمع وهويته الذي تنتمي إليه.

وما تطوّره إلّا تماشيا مع التّغييرات التي تطرأ على المجتمعات التي تؤدّي إلى تغيير اهتمامات الأطفال فيها، وترقيص الأطفال بالألفاظ الموزونة من طبائع الإنسان في كلّ مصر وعصر؛ بل إنّ ذلك موجود حتّى عند الحيوان، وهو يداعب صغيره ويحنو عليه في صوت ليّن "والتّرقيص للإنسان من أقوم الوسائل لتربية الطّفل وتنشئته، وغرس جميل الخصال وحميد الفِعال في ذهنه قبل أن يشتدّ، حتّى تتمكّن من أخلاقه وتنقش في مخيّلته نقش القلم في الحجر، فيشبّ الطّفل وقد انطبعت في جسده وامتزجت بلحمه ودمه فلا يمكن بعد ذلك محوها من ذهنه"[5] غير أنّ شعر التّرقيص هذا لم يكتب من أجل أن ينشده ويحفظه الصّغار، وإنّما هو شعر إيقاعي يؤثّر في الطّفل بالصّوت والحركة.

1- إرهاصات شعر الأطفال:

يكاد يجمع الباحثون على أنّه لا وجود لشعر مكتوب للأطفال في تراثنا العربي فليس فيه "ما يمكن أن نسمّيه: أدب أطفال. ويبدو أنّ الصّغار كانوا يتداولون القصص والحكايات الشّعبية التي يتناقلها الكبار، وما (ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة) إلّا حكايات وضعتها مخيّلة القصّاصين لأبناء الشّعب في عهود كان فيها الشّعب قليل المعرفة، يؤمن بوجود الجنّ والعفاريت ويجد متعة في أخبار الكنوز المطمورة والقصور المسحورة، التي تنقله إلى عالم خيالي رحيب ينسيه مرارة الواقع ومتاعب العيش"[6] غير أنّ هذا التّراث يحتوي على ما سمّي "بشعر ترقيص الأطفال، وهو ليس مكتوبا من أجل أن ينشده أو يحفظه الأطفال بل هو شعر مكتوب بإيقاع راقص، يناسب من يرقِّص الطّفل، فيعبّر عن عاطفته من ناحية، ويؤثّر في الطّفل بالصّوت والحركة المرافقة للغناء"[7] حيثّ صُبّ هذا النّوع الشعري في قالب الرّجز، وتشكّلت نواته شفويا على ألسنة الجدّات والأمّهات في الأدب الشّعبي، فكان له "دوره الحيوي في تكوين الشّعور الوجداني للطّفل. إذ إنّ تأصيل العلاقة المميّزة بين الأدب والطّفل تقوم على مدى قدرة الفنون الأدبية في التأثير على الطّفولة

كوسيلة وغاية"[8] لذلك جاءت أدبيات الطّفل المتناثرة في كتب التّراث الأدبي العربي أجل تحقيق الوظائف التربوية والجمالية واللّغوية لهذا اللون الشّعري. وقد تفطّن القدامى إلى أنّ الطّفل يجد راحته مع الأناشيد والأغاني الخفيفة، فيطرب ويهتزّ مع وقع صوت الجدّة أو الأم وهي تلقي تلك المقطوعات الخفيفة.

وعلى الرّغم من أنّ كثيرا من الدّارسين ورغم إقرارهم بوجود أغاني المهد وأشعار ترقيص الأطفال عند العرب، لا يقرّون بوجود شعر للطّفل، وحجّتهم في ذلك أنّ مثل هذه الأشعار موجودة في كلّ الآداب العالمية، ولم تُقَل من قبل شعراء معروفين؛ لأنّها في عمومها من مرتجلات النّاس تعبيرا عن عواطف وحاجات للتّسلية أو المتعة، ولا تمثّل أدب الأطفال بمفهومه الحديث "ولا يمكنها أن تشكّل حتّى اتّجاها صغيرا داخل هذا الأدب، لأنّها لا تخاطب الطّفل مباشرة ولا تسبر أغواره، ولا تنطلق من اهتماماته، بقدر ما كانت نصوصا تكشف عطف الآباء على أبنائهم، واهتمامهم برعايتهم، وتربيتهم، والعناية بهم من نواحي متعدّدة"[9] وعلى ذلك يكاد يكون الأدب العربي حسب رأي هؤلاء الباحثين فارغا من أدب الطّفولة، وبخاصة شعر الأطفال، فالطّفل شغل مكانة هامّة على خارطة التّراث الأدبي العربي بشكل صورة أو موضوع، وليس طرفا متلقٍّ للأدب، ولذا يرى الدّارسون أنّ أدبنا العربي خال من أدب الطّفولة إذا ما استثنينا أشعار الترقيص وأغاني المهد التي تدور في معظمها حول: رثاء الأطفال، وهدهدتهم وترقيصهم، وبعض الحكايات القصيرة الشّعرية على ألسنة الحيوانات.

ومع ذلك، هناك كثير من الباحثين أشاروا إلى وجود جذور، لهذا الأدب في تراث الأدب العربي بشّقيه المنظوم والمنثور، إلّا أنّ "علماء العربية القدامى لم يذكروا صراحة في مؤلّفاتهم اللّغوية والأدبية أو العامّة ما يشير إلى تعريف محدّد أو مفهوم ما لأدب الطّفل شعره أو نثره، على الرّغم من وجود النّتاج الأدبي الذي يخاطب عقل الطّفل ووجدانه في بطون كتب اللّغة والأدب، ولم يضع هؤلاء العلماء من النّقّاد أيّة مفاهيم أو تعريفات اصطلاحية لأدب الطّفل في إطار شروحهم وتعليقاتهم، وذكرهم للآراء والأحكام البلاغية والنّقدية عبر تاريخ الأدب العربي"[10] وفضلا عن العوامل السّابقة فإنّ مردّ ذلك يعود إلى أسباب اجتماعية تمثّلت في تلك الرّواسب التي بقيت من النظرة الجاهلية تجاه الطّفل ، بالإضافة إلى شيوع ما يسمّى بالمربّيات في فترة الطّفولة المبكّرة "وما صاحب ذلك من قيامهنّ بالدّور التّربوي فضلا عن تسلية الطّفل بالغناء له وترقيصه على إيقاع

المنظومات الخفيفة أو المأثورات الشّعبية، وبالتّالي عزف الشّعراء والنّقّاد على الإبداع للطّفل بنوع خاص في الأدب الرّسمي، بدرجة ملحوظة أو لأغراض مقصودة؛ لذلك لم تتشكّل لنا المواضعة المصطلحية لديوان الأطفال"[11]. كما نرى أن المعجم اللّغوي الذي كان يستعمله الشّاعر العربي القديم فوق مستوى الأطفال الإدراكي واللّغوي؛ لأنّه يتميّز بالصّعوبة وفيه الكثير من الألفاظ الوحشية والغريبة، بالإضافة إلى الأغراض الشّعرية التي تناولها الشّاعر القديم والتي في حدود معرفتنا لها تناولت موضوعات المدح والهجاء والغزل والوصف والفخر وغيرها، دون أن تتضمّن الأبعاد التّعليمية والتّربوية والتّهذيبية الموجّهة مباشرة لوجدان الطّفل أمّا تلك المراثي -وإن كانت منظومات شعرية- فهي إبداع عن الطّفل وليست إبداعا للطّفل والتي سأنأى عن التّمثيل لها في هذا الحيّز.

2- مضامين شعر الأطفال في التراث العربي القديم

الحقّ أنّه لا يمكن تتبّع كلّ الموضوعات التيّ عالجها شعر الهدهدة والتّرقيص لأنّه لم ينل عناية الرّواة والمؤلّفين مثل ما ناله الشّعر عامّة على درب مسيرة العصور الأدبية الطويلة؛ وذلك للعوامل الآتية[12]:

- أنّ الأدب العربي في بدايته نشأ شفويا، ويعتمد في طبيعة تلقّيه سماعيا، وذلك يفرض إدراكا معيّنا، ومستوى من الثّقافة، قد لا تتوافر في أطفال العرب عبر تلك العصور.

- أنّ الذين دوّنوا التّراث العربي مع نهاية عصر الدّولة الأموية، وطوال عصر الدولة العبّاسية، لم يهتمّوا بتدوين أدب الأطفال ووجّهوا كلّ جهودهم إلى أدب الكبار الذي حظي -ولا يزال- بجهود علماء التّدوين واللّغة والنّقد والبلاغة.

- أنّ الأدب عند انتقاله من المشافهة إلى الكتابة، كانت القراءة محدودة الانتشار، ومتاحة أكثر للكبار دون الصّغار إلّا المحظوظين.

وعلى الرّغم من تعدّد الآراء في معالجة هذا الموضوع، وفي ضوء ما تقدّم سنقف عند جذور ونصوص فنّية شعرية، لها في كلّ حال علاقة بالطّفل في تراثنا الأدبي العربي، من مثل

الأمهودات، وأغاني التّرقيص، والمنظومات القصيرة والأراجيز وبعض المقطّعات الشعرية القصيرة باعتبار شروط أدب الطّفل هي من الأنواع التي تدخل دائرة شعر الأطفال.

لقد وصلنا عن العرب في الجاهلية والإسلام عدّة مقطوعات شعرية كانوا يغنّون أولادهم بها "وتكشف هذه المقطوعات الفضائل التي كان العربي يحبّ أن يتحلّى بها والمفاخر التي كان يرنو إلى أن يقوم بها هو وأبناؤه؛ ولذلك نعدّها من الوثائق الهامّة التي تمثّل آمال المجتمع العربي في عصوره المختلفة"[13] فقد كان من عادة قبائل العرب أنّه إذا ولد فيها مولود ذكر "أتت القبائل فهنأت بذلك وصنعت الأطعمة، واجتمع النّساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعن في الأعراس وتتباشر الرّجال والولدان، لأنّه حماية لأعراضهم وذبّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة لذِكْرهم، وكانوا لا يُهنّؤون إلّا بغلام يولد أو شاعر ينبع فيهم أو فرس تنتج"[14] وبلغ بهم الأمر أن ترقّص الأم صغيرها الذّكر حتّى ولو كانت معروفة بإنتاج الحمقى، وما يهمّها سوى أن تنظر إلى عورته لترى علامة ذكورته ولا تبالي إن كان أحمقا، فترقّصه بقولها[15]:

ولا أبالي أن أكون مُحمِقة

إذا رأيت خصية معلّقـة

ومما يروى في هذا الموضوع أنّ قابلة البادية قالت لجارية تسمّى (سحابة) وقد ضربها المخاض وهي تُطْلَقُ على يدها وتطلب منها أن تجيء بولد لا ببنت وهو دليل على تفضيل الذكر دون الأنثى[16]:

أَيَا سحابُ طرِّقي بخيرِ وطرّقي بخُصية وأيرِ

ولا تُرينَا طرف البُظَيْرِ

1.2- مضمون مدح الأولاد:

وخير فاتحة لذلك ما كانت حليمة السّعدية ترقّص به رسول الله ﷺ بقولها[17]:

يا ربّ إذا أعطيته فأبقه وأعله إلى العلا وأرقه

وأدحض أباطيل العدا بحقّه

وعن حليمة أنّها خرجت يوما في الظّهيرة تطلب النّبي -صلى الله عليه وسلم- فوجدته مع أخته من الرضاعة وهي الشّيماء وكانت تحضنه، وترقّصه بقولها[18]:

هذا أخٌ لي لم تلدْه أمّي وليس من نسل أبي وعمّي

فأنْمِهِ اللّهُمَّ فيما تُنْمِي

ودخل النّبي -صلى الله عليه وسلم- على عمّه الزّبير بن عبد المطّلب، وهو صبي فأقعده في حجره وقال يرقّصه[19]:

محمّدَ بْنَ عَبْـدَمِ عشتَ بعيْشٍ أنْعَمِ ودولـــةٍ ومغْنَـمِ

في فرعِ عزٍّ أسنمِ مكـــرّمٍ معظَّمِ داسَ سَجِيسَ الأزْلَمِ

وتتجلّى صفة الكرم والعفّة، والسّعي وراء المجد والوفاء بالوعد في ترقيص الزبير بن عبد المطّلب لأخيه العباس وهو يصفه بقوله[20]:

إنَّ أخي عبَّاسُ عفٌّ ذُو كرمْ فيهِ عنِ العوراءِ إنْ قِيلتْ صَمَمْ

يرتاحُ للمجدِ ويُوفِـــي بالذّمَمْ وينحرُ الكوْمَاءَ في اليومِ الشَّبِـمْ

وهذا عنترة بن شدّاد، يخصّ نفسه بالشّجاعة والفروسية منذ كان في المهد صبيا يقارع السّيوف والرّماح، فمنذ ولادته والسّيف والرمح يؤنسان حياته، حتّى غدا طفلا ميزته الشّجاعة والقوّة، وذلك من أسمى ما كان العربي يسعى أن يربّي عليه ولده، حيث يقول عن صباه[21]:

إنّني ليثٌ عبــوسٌ ليس لي في الخلقِ ثانِي

خُلقَ الرُّمحُ لكفّي والحسامُ الهِنْـــدُوَانِي

ومعي في المهدِ كَانَا فوقَ صدرِي يُؤَنِسَانِي

ويرسم الزّبير بن عبد المطّلب صورة لمستقبل أخيه ضرار الذي يصغر العباس وهو لايزال غضا صغيرا واصفا إياه بالكرم والجود عندما يكبر، وذلك ظنه فيه[22]:

ظَنِّي بميَّاسٍ ضرارٍ خيرُ ظَـنٌّ أنْ يشترِي الحمْـــــدَ ويُغْلِي بالثّمَنْ

ينحرُ للأضْيافِ ربَّاتُ السِّمَنْ ويضربُ الكبْش إذا البَأْسَ ارجَحَنْ

وعندما دخلت عليه ابنته أم الحكم وهي صغيرة قال فيها[23]:

يا حبّذا أمّ الحكـمْ كأنّها ريمٌ أحـمْ

يا بعلَها ماذا يَشــمْ ساهمَ فيهَا فسهمْ

وفي ذات المقام دخلت الجارية أمّ مغيث على الزّبير وخاطبته: مدحتَ ولدك وبني أخيك ولم تمدح ابني مغيثا، فقال عليَّ به عجّليه، فجاءت به فقال فيه مادحا إياه[24]:

وإنْ ظَنّي بمغيـــــثٍ إنْ كَبِـرْ أنْ يسرِقَ الحجَّ إذا الحجُّ كَثُرْ

ويُوقرَ الأعيارَ من قرفِ الشَّجَـرْ ويأمُرُ العبْـــدَ بليلٍ يعتَــذِرْ

ميراث شيخٍ عاشَ دهراً غيرَ حرْ

وهذه هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، تصف ابنها معاوية حين ترقيصها إياه، بأنّه طفل كريم ومحبوب في أهله ينأى عن الفواحش واللّؤم، وهو الّصبور في الشّدائد ولا يخيّب ظنّ أهله فيه، فتقول[25]:

إنّ بُنيَّ معرقٌ كريـمْ مُحَبَّبٌ في أهلــهِ حليــمْ

ليسَ بفحّاش ولا لئيمْ ولا بطخرورٍ ولا سؤومْ

صخرُ بَنِي فهر به زعـيمْ لا يخلفُ الظّنَّ ولا يخِيمْ

وفي عاطفة رقيقة ومشاعر نبيلة تغنّي امرأة أعرابية ابنها وهي ترقّصه، حيث تأخذه إلى صدرها وتشمّه فتجد ريحه كريح الخزامى، وتستعذب العيش به وكأنّها الوحيدة التي أنجبت ولدا في بلدها وتلكم هي غريزة الأمومة[26]:

يَا حبّذَا ريح الولـدْ ريح الخزامى في البلــدْ

أهكذا كلُّ ولــدْ أمْ لم يلـدْ قبلِي أحــدْ

ثمّ إنّ ضُباعة بنت عامر قالت وهي ترقّص ابنها المغيرة بن سلمة بن هشام بن المغيرة[27]:

نمى به إلى الذّرا هشام قَـــرْمٌ وآبـاءٌ لـــه كـرامُ
جَحاجِحٌ خضارمٌ عظامُ من آل مخزومٍ همُ الأعـــلامُ

الهامةُ العلياءُ والسّنام

ويروى أنّ أسماء بنت أبي بكر الصّديق-رضي الله عنهما- وهي ترقّص ابنها عبد الله بن الزّبير كانت تقول متنبّئة أن يكون ذا فضل مفوّه يفرّج كربات أهل الضيق والحاجة[28]:

أبيضُ كالسّيفِ الحسامِ الإبريقِ بين الحواريّ وبيـــن الصِّدّيقِ
ظنّي به وربّ ظـــنٍّ تحقيق والله أهلِ الفضل أهلِ التدّقيق
أن يُحْكِمَ الخُطْبَةَ يُعْيـي المِسْلِيقِ ويفرجَ الكربة في ساعِ الضّيقِ

وكان رجل من طيّ يقطع الطّريق، فمات وترك طفلا رضيعا عند زوجته فجعلت ترقّصه وتقول[29]:

يا ليتَه قد قطع الطّريـــقَا ولم يردْ في أمـــره رَفيقَا
وقد أَخَاف الفجَّ والمضيقَا فقلَّ أن كان به شَفيقَا

وهذه أمّ الفرزدق حين بُشّرت بأنّها ستلد داهية من دواهي العرب، راحت ترقّصه بعد مولده، وتحكي فتقول[30]:

قصَصْتُ رؤيَايَ على ذاكَ الرّجـلْ فقالَ لي قولًا وليـتَ لم يقلْ
لَتَلِدِنَّ عُضلةً مـــن العُضـــلْ ذا منطقٍ جَزْلٍ إذا قالَ فصلْ
مثل الحسام العَضْبِ ما مسّ قصلْ يعدلُ ذا الميلِ ولَّا يعتـــدِلْ

ينهلُ سُمًّا منْ يعادِي ويعلُّ

وقيل لرجل صف ابنك. فقال: ولدَ النّاس أبناء، وولدته أبًا، يحسن ما أحسن ولا أحسن ما يحسن، وراح يمدحه ويرقّصه، ويبثّ حبّه إياه في صورة مدحه له، ويدعو الله أن يحفظه ويحرسه[31]:

يا حبّذا روحُه وملمسُه أملحُ شيءٍ ظلّا وأكيسُه

الله يرعاه لي ويحرسُه

وفي ذات الموضوع يقول الحسن البصري الإمام المشهور وهو يرقّص ابنه[32]:

يا حبّذا أرواحه ونفسه

وحبّذا نسمه وملمسه

والله يبقيه لنا ويحرسه

حتّى يجرّ ثوبه ويلبسه

وفي مضارعة أخرى لأبي حرزة جرير أبيات قالها في ابنه بلالًا وهو يداعبه ويناغيه، تعدّ نموذجا في مدح الأبناء، وصدق الأبوّة[33]:

إنَّ بلالًا لمْ تَشِنْهُ أمَّهُ لمْ يتناسَبْ خالُهُ وعمّهُ

يشْفِي الصُّداعَ ريحُهُ وشَمُّهُ ويُذهِبُ الهمومَ عنّي ضَمُّهُ

ينقّي ريح المسك مستحمُّهُ ما ينبغي للمسلمين ذمُّهُ

يُمضِي الأمورَ وهو سامٍ همُّهُ بحرُ بحورٍ واسعٌ مجَمُّهُ

يفرّجُ الأمرَ، ولا يغمُّهُ فنَفْسُه نَفْسي وسِمّي سَمّهُ

2.2- مضمون الدّعاء للأولاد:

من الصّعب جدّا أن تُحصى أغنيات التّرقيص التي اشتملت على معنى الدّعاء للأبناء؛ لتناثرها في بطون أمّهات التّراث الأدبي العربي، ورغم ذلك سنقف على منتخبات منها ذات علاقة بالطّفل في فترة مهده؛ لتهنينه وتطريبه وتهذيبه واستثارة وجدانه بالصّوت الحسن الذي يجري في جسمه مجرى الدّم في العروق.

وخير فاتحة لذلك ما روي عن عبد المطّلب من أنّه أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد ولادته إلى الكعبة، فطاف به أسبوعا، ثمّ قام عند الملتزم وجعل يدعو ويقول[34]:

يا ربّ كلّ طائف وهاجــد وربّ كـلّ غائــب وشاهــد

أدعوك باللّيل الطّفوح الرّاكد لاهمّ فاصرف عنه كيد الكائد

واحطم به كلّ عنود ضاهــد وانشئه يا مخلّـــــــد الأوابد

في سؤدد راس وجدّ صاعـــــــد

وفي رواية أخرى أنّ آمنة لمّا وضعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أرسلت إلى عبد المطّلب تخبره أنّه ولد له غلام. فنهض مسرورا، ومعه بنوه حتّى أتاه، فنظر إليه. وبعد سماع كلّ خبره من آمنة، أخذه في خرقة، فأدخله الكعبة وقال[35]:

الحمد لله الــذي أعطــاني هذا الغـلام الطّيـب الأردان

أعيذه بالبيت ذي الأركان من كلّ ذي بغي وذي شنآن

وحاسد مضطرب العنان

ومن قبيل دعاء الأم لوليدها قول أم حبيب وهي ترقّص جبيرا بن مطعم وتطلب من ربّها أن يحفظه، ويبارك فيه، ويحميه من السّيوف الحاقدة، والوساوس العارضة ومن الأمراض المختلفة متمنية أن تتزيّن به المجالس[36]:

احفــظ جبيرًا ربّ في السرّيــهْ

لا تقعــدنِّي مقعــــــدا شقيّـهْ

وبـــــاركَـنْ يـا ربّ بنيّـــــهْ

احفظ جبيرا من سيوف فَارسْ

وجنِّبْنـــــــهُ عارضَ الوسـاوسْ

واحفظهُ من كلّ زحيـر حادسْ

وزيِّـنَـــــنْ ربّ بـــه المجالِسْ

وفي ذات القبيل ما روي عن صفية بنت عبد المطّلب حين قالت في ترقيصها لعبدالله بن الزّبير[37]:

إنّ ابني الأصغر حِبّ حَنْكَلْ

أخافُ أن يعصيـــــنِي ويبخلْ

يا رب أمتعنِي ببِكْري الأوّلْ

الماجـــــدُ الفيّـاضْ والمؤَمّلْ

3.2- مضمون المشبّه من الأولاد:

كان من سعادة العربي أن يشبّه ولده به، أو يشبّهه بأحد ذوي المكانة المرموقة حتّى قيل: فلان ينظر عن عين أبيه، ويبطش بيديه، فهذا سعيد بن صمصمة حين رزق ولدا سمّاه ميمونًا وكان شديد الشّبه به في خَلْقه فكان يرقّصه، وينوّه بقوة هذا الشّبه قائلاً[38]:

أحبّ ميمون أشدّ حبّ

أعرف منـه شبهي ولبّي

ولبّه أعرف منه ربّـــي

وقد روُوا عن أم أبي بكر سلمى بنت صخر حين أرادت فطام ابنها الصّديق بجعلها الصّبر على ثديها، وفطن هو إلى ذلك، وطلب منها غسله، قيل انّها ضمّته إلى صدرها، وقبّلته ورشفته، وجعلت ترقّصه وتقول[39]:

يا ربّ عبد الكعبـهْ

أمتـــــع بـه يا ربّ

فهو بصخـــر أشبـــــهْ

كما يروى عن جرير أنّه حين كان يرقّص ابنه حزره، كان يخاطبه بقوله[40]:

يا حزْرَ أشبِهْ مَنْطِقِي وأجلادْ وكَرَيَانِي الأمْرَ بعد الإيـرَادْ

وعَدْوَتي في أوّلِ الجمْعِ العــادْ وحَسَبِي عند بقايا الأَزَوَادْ

وحُبِّيَ الضَّيْفَ إلى جَنَبِ الزَّادْ

ومن الأغنيات الحسان في مشابهة الولد لأحد ذوي المكانة المرموقة في الأهل أغنية العبّاس في ترقيصه ولده قُم، الذي كان كثير المشابهة برسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث كان يقول[41]:

أيا بنيّ يا قُمْ أيا شبيه ذي الكرمْ

وكانت فاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ترقّص ولدها الحسن بن علي - رضي عنهما- وتشبّبه بأبيها حين تقول[42]:

وَا بأبي شَبَهَ النّبي ليس شبيهًا بعلي

وفي غير المشبه بأبيه، قال رجل يرقّص ولده[43]:

واللّه ما أَشْبَهَني عصامُ لا خُلُقٌ منهُ ولا قوامُ

4.2- مضمون ترقيص البنات:

لقد شاع عند العرب كرههم للبنات، والأدلّة على ذلك واضحة في القرآن الكريم وأسباب ذلك كثيرة، ومما لم أذكره في ذلك كون عرب الجاهلية كانوا ينظرون إلى البنت على أنّها عالة وعبء ثقيل؛ لأنّها لا تستطيع إعالة نفسها وهي عرضة للسّبي، وحتّى زواجها لا فائدة منه؛ لأنّ إنتاجها من الأولاد هو لغيرهم، حتّى وصل بأحدهم حدّ قوله:

بنُونَا بنو أبنائنَا، وبناتُنا بنوهنّ أبناء الرّجال الأباعد

غير أنّه لا يخفى علينا أنّ من رجال العرب وبخاصة في الجاهلية من كان يكنّى باسم بنته والأمثلة في ذلك كثيرة: أبو ليلى المهلهل، أبو أمامة النابغة الذّبياني، أبو الخنساء قيس بن مسعود الشّيباني، بل ولعلّ أشهر ملوكهم كان يسمّى عمرو ابن هند. وفي بطون أمهات الكتب العربية التّراثية كمّ موفور عن بعض الأوضاع الكريمة للبنات العربيات اللّواتي كنّ موضع اعتزاز وفخر وحنان، فقد رُوي عن معن بن أوس أنّه كان له ثماني بنات قال فيهنّ[44]:

رأيت رجالًا يكرهون بناتهم وفيهنّ لا تكذب نساء صوالح

وفيهنّ والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملنه نوائح

وفي محبّتهنّ وتفضيلهنّ، اعتبروا البنات حسنات، والبنون نعم، فالحسنات يثاب عليها والنّعم مسؤول عنها، بل إنّه من يمن المرأة أن تلد الأنثى قبل الذّكر؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى بدأ في كتابه العزيز بالأنثى قبل الذكر:﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ**﴾ [الشورى: 49] وممّا يروى في ذلك أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده بنيّة يلاعبها فقال له: انبذها عنك يا أمير المؤمنين، فوالله إنّهنّ يلدن العداء، ويقرّبن البعداء، ويؤدّين الضّغائن فقال معاوية: لا تقل، فما ندب الموتى، ولا تفقّد المرضى، ولا أعان على الحزن مثلهنّ، ولدت لأعرابية بنية فرقّصتها بقولها[45]:

وما عليّ أن تكون الجاريه تكنس بيتي وتردّ العاريه؟

تمشط رأسي وتكون الفاليه وترفع السّقط من خماريه

حتّى إذا ما بلغت ثمانيه رديتها بردة يمانيه

زوّجتها مروانَ أو معاويه أصهار صدق للمهور غاليه

وما أبدع ما قاله رؤبة بن العجاج وهو يغنّي لبنت تدعى ليلى في مجال التّعجب والاستطابة متمنّيا أن تكون له ولو بشرائها من أبيها[46]:

أيّ قَلُوصٍ راكبٍ تراها شالُوا عليهنَّ فشُلْ عُلَاها

واشدُدْ بمَثْنَى حَقَبٍ حَقْوَاهَا ناجِيَةً ونَاجِيًا أَبَاهَا

واهٍ لِلَيْلَى ثمّ واهًا واهَا هي المُنَى لو أنَّنَا نِلْنَاهَا

يا ليْتَ عينَاها لنَا وفَاهَا بثمنٍ نُرضِي بهِ أَبَاهَا

إنَّ أَبَاهَا وأَبَا أَبَاهَا قدْ بَلَغَا في المجْد غَايَتَاها

وأنشد أعرابي يزفّن بنته، ويتمنّى أن تصبح شابّة تدني برقعها إلى عينيها وتنتف شعر حاجبيها ويأتيها الخَطَبَة يطلبون الزّواج منها، فيراوغهم في هذا المقام ويرفع من قيمة مهرها[47]:

يَا ليتَها قد لبِست وَصْوَاصَا وعلّقت حاجبَها تَمَـاصـا
حتّى يجيئوا عُصَبًا حِرَاصَـا ويُرْقِصُوا من حـولِنَا إرقَاصا
فيجِدُونِي عكرًا حَيَّاصَا

ويوجد من العرب من يفضّل البنت على الولد، فقد رويت حكاية عن أبي نخيلة الشّاعر مضمونها أنّه تزوّج من قريبة له، فولدت له بنتا، فغمّه ذلك، فعمد إلى تطليقها فعاتبه قومه على فعله، فندم وراجعها، وذات يوم وهو في بيته سمع زوجته ترقّص هذه البنت وتلاعبها، فرقّ قلبه لذلك، فقام إليها وأخذها، وراح ينزّيها بترقيصة كلّها ألم وحرقة[48]:

يا بنت من لم يكن يهــوى بنتا ما كنت إلّا خمسة أو سـتا
حتّى حللت في الحشى وحــتّى فتتِّ قلبي من جوى فانفـتَّا
لأنتِ خيرٌ من غـلام أنـتَا يصبـح مخمورا ويمسـي سبـتا

4.2-مضمون الألغاز الشّعرية:

اللّغز شكل أدبي شعبي قديم قدم الأسطورة، متجدّد في كل الثّقافات المعروفة تنوّعت سياقاته ومستوياته، وتعدّدت ألوان صياغته، في علاقة وثيقة بين الفكرة والأسلوب فهو ليس مجرد أحجية تطرح للتسلية والمتعة، وإنما يحمل اللّغز "الوظيفة الأخلاقية التّعليمية شأنه شأن الحكاية القصصية بأنواعها والأساطير والأمثال والوصايا والحكم فاللّغز يمكن أن يحلّ مشكلة، أو ينمّي معلومة أو معلومات، ويؤكّد على القيم الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع"[49] فضلا عن ذلك يقوم اللغز بعصف أذهان الأطفال، وتنمية خيالهم، بأسلوب لغوي بسيط، أثناء فك الرّموز والحلّ، ممّا يحقّق مكاسب النّمو اللغوي والمعرفي عندهم حيث يرتبط في صناعته وحلّه بعدد من الاختصاصات المتقاطعة "ودراسته لا تقف عند المعالجة البلاغية المدرسية، كما أريد لها بمباحثها في التّورية والكناية والاستخدام والتّعريض والجناس وغيرها من الفنون، وإنّما يتجاوز ذلك إلى اللّسانيات ومباحثها في الصّرف والنّحو والمعجم والدّلالة، ثمّ إلى علم النّفس المعرفي بمباحثه في استقبال المعلومات وترميزها وتخزينها والرّبط بينها واسترجاعها، وبتجارب العلماء مع بنية الذّاكرة، وظاهرة النّسيان

والعمليات المصاحبة لحل المشكلات"[50] وكلّ أولئك يستثيره ويستدعيه فنّ اللّغز، وهي غاية معرفية حرص عليها أدب الطّفل.

وقد حفل تراثنا العربي بآلاف الألغاز المختلفة، التي عكست في مجملها أنماطا مختلفة من التّفكير في سبيل الوصول إلى المعرفة، وملء أوقات الفراغ بما هو مفيد إلّا أنّ أكثرها لم يدوّن وما حظي منها بالتّدوين اتّسم باللّغة التعبيرية والتصويرية، وقوّة القدرة التخيّلية، والأفكار العميقة؛ ممّا يحقّق الإحساس بجمال اللغة، والذي نقتطف منه ما يناسب مراحل الطّفولة المختلفة ضمن أقوالهم:

- في قوس قزح[51]:

ماذا ترى يابْن الكرامة في قوس بلا سهمٍ ولا وترِ
تلقاه في بعض النّار ولا يبقى له في اللّيل من أثرِ

- في الموز[52]:

ما اسم شيء حسن شكله تلقاه عند النّاس موزونا
تراه معدودا فإن زدته واوًا ونونًا صار موزونا

- في الضّرس[53]:

وصَاحبٍ لا أَملُّ الدّهرَ صُحْبَتَهُ يشْقَى لنفعِي ويسعَى سعيَ مجتهِدِ
لمْ أَلْقَهُ مُذْ تصَاحبْنَا، فُذْ وقعَتْ عينِي عليه افترقنَا فُرقةَ الأبدِ

- في البيضة[54]:

ومولودةٍ لا روح فيها وإنّهَا لَتقبلُ نفخ الرّوح بعد ولادتها
إذا جُمعت فالنّقصُ يعرُو حروفها ولكنَّها تزدادُ عند انفرادها

- في اللّغز وحلّه[55]:

لِي حبيبٌ لا أسمّيه ظريفٌ في معانيهِ
لهُ من نَرْجِسٍ حرفٌ ومن نِعْنَاعِ ثانِيهِ

ومـــنْ تُفّـاحِ ثالثُـهُ ومن ريْحَـانِ باقيـهِ
فهذا اسـمُ منْ أهوى فهلْ فيكم من يسمّيهِ

فكان الجواب:

لهُ من نَرْجِسٍ جيمٌ ومن نِعْنَاعِ ثانيهِ
وفَا تفّـاحٍ ثالثـهُ ورَا ريحانِ باقيهِ
فهذا جعفرٌ فادعُـوا لناظمهِ وناشيـهِ

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة المثيرة في عنوانها والمتعبة في بحثها يتراءى لنا أنّ شعر الأطفال في التراث الأدب والفني العربي القديم تجلى في أغاني الهدهدة والتهاليل والترقيص في ذات أشكال متقاربة لا سيما في قصر أشطرها الشعرية وبناء مقطعيتها الغنائية، وتعبّر عن الحالة النفسية والوضع الاجتماعي والعائلي الذي يعيشه قائلها في تلك اللحظة، وبخاصة الأمهات، ونرى أن المضامين تكاد تقتصر على المعاني الآنفة الذكر، ورغم ذلك فهي ثَبْت لوجود جذور لأدب الأطفال في التراث العربي القديم، وإن غُمرت أصطلاحاته الحديثة.

الهوامش:

[1]- عميش عبد القادر: قصّة الطفل في الجزائر، ط2، دار الأمل، تيزي وزو، 2012، ص:17.

[2]- سمير عبدالوهاب أحمد: أدب الأطفال (قراءات نظرية ونماذج تطبيقية) ص:72.

[3] - سيث لير Seth Lerer: أدب الأطفال من إيسوب إلى هاري بوتر،(د، ط) ترجمة: ملكة أبيض منشورات الهيئة العامة السّورية للكتاب، دمشق، 2010، ص:43-44.

[4]- عبد الفتاح أبو معال: أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم، ط1، دار الشّروق، عمّان، 2005 ص:237.

[5]- أحمد عيسى: الغناء للأطفال عند العرب (د، ط) المطبعة الأميرية، القاهرة، 1936، ص:05.

[6]- هادي نعمان الهيتي: أدب الأطفال (فلسفته، فنونه، وسائطه) (د، ط) الهيئة المصرية العامة للكتّاب، 1986 ص:103.

[7]- بيان الصّفدي: شعر الأطفال في الوطن العربي (دراسة تاريخية نقدية) وزارة الثّقافة، دمشق، 2008، ص:03.

[8]- أحمد زلط: أدب الأطفال (أصوله-مفاهيمه-رواده) ط2، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص:45.

[9]- العيد جلولي: النّص الشعري الموجّه للأطفال في الجزائر، ط1، موفيم للنّشر، الجزائر، 2008، ص:18-19.

[10]- أحمد زلط: أدب الأطفال (أصوله-مفاهيمه-رواده) ص:83.

[11]- المرجع نفسه، ص:84.

[12] - أنور عبدالحميد الموسى أدب الأطفال... ((فن المستقبل)) ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 2010، ص:50.

[13]- حسين نصار: الشعر الشعبي العربي، ط2، منشورات اقرأ، بيروت، 1980، ص:55.

[14]- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهّر في علوم اللغة وأنواعها (د، ط) ج2، شرحه وضبطه وصحّحه: محمد أحمد جاد المولى، وآخران، المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص:473.

[15] - أحمد عيسى: الغناء للأطفال عند العرب، ص:54.

[16] - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، ط1، ج5، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1943، ص:581.

[17] - القسطلاني أحمد بن محمد: المواهب اللّدنيّه بالمنح المحمدية، ط2، تحقيق: صالح أحمد الشّامي المكتب الإسلامي بيروت، 2004 ص:153.

[18] - أحمد عيسى: الغناء للأطفال عند العرب، ص:01.

[19] - القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم: الأمالي (د، ط) ج2، دار الكتب العلمية، بيروت (د، ت) ص:115.

[20] - محمد بن حبيب البغدادي: المنمّق في أخبار قريش، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1995، ص:350.

[21] - الخطيب التّبريزي يحي بن علي الشيباني: شرح ديوان عنترة، ط1، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: مجيد طراد دار الكتّاب العربي، بيروت، 1992، ص:199.

[22] - القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم: الأمالي، ص:115.

[23] - المرجع نفسه، ص:116.

[24] - أحمد عيسى: الغناء للأطفال عند العرب، ص:26.

[25] - بشير يموت: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ط1، المطبعة الأهلية، بيروت، 1934، ص:128.

[26] - ابن العديم الحلبي كمال الدين عمر بن أحمد: الدّراري في ذكر الذّراري، ط1، تحقيق: علاء عبد الوهاب محمد، دار الهداية (د، ب) 1994، ص:23.

[27] - القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم: الأمالي، ص:117.

[28] - ابن ظفر الصّقلي محمد بن عبد الله: أنباء نجباء الأبناء، ط1، مطبعة التّقدّم، دمشق (د، ت) ص:85.

[29] - ابن عبد ربّه أحمد بن محمد: العقد الفريد (د، ط) ج2، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت (د، ت) ص:275.

[30] - - أحمد عيسى: الغناء للأطفال عند العرب، ص:69.

[31] - الرّاغب الأصبهاني حسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ط1، ج1، دار مكتبة الحياة بيروت (د، ت)، ص:323.

[32] - نجلاء محمد علي أحمد: أغاني وأناشيد الأطفال، ط1، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2011، ص:77.

[33] - جرير بن عطية الخطفي: الدّيوان (د، ط) دار صادر، بيروت (د، ت) ص:437

[34] - ابن ظفر الصّقلي محمد بن عبد الله: أنباء نجباء الأبناء، ص:09.

[35] - 35- البلاذري أحمد بن يحي: أنساب الأشراف، ط1، ج1، دار الفكر، بيروت، 1996، ص:89.

[36] - أحمد أبو السّعد: أغاني ترقيص الأطفال عند العرب، ط2، دار العلم للملايين، لبنان، 1982، ص:64-65.

[37] - المرجع نفسه، ص:64.

[38] - الراغب الأصبهاني حسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء، ص:324.

[39] - ابن ظفر الصّقلي محمد بن عبد الله: أنباء نجباء الأبناء، ص:44.

[40] - جرير بن عطية الخطفي: الدّيوان، ص:110. وينظر: محاسن الأراجيز، ص:171-172.

[41] - محمد بن حبيب البغدادي: المحبّر، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت (د، ت) ص:46.

[42] - ابن عبد ربّه أحمد بن محمد: العقد الفريد، ص: 274.

[43] - أحمد عيسى: الغناء للأطفال عند العرب، ص:67.

[44] - أحمد أبو السّعد: أغاني ترقيص الأطفال عند العرب، ص:95.

[45] - الرّاغب الأصبهاني حسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ص:325.

[46] - رؤبة بن العجّاج: الديوان (د، ط) تصدير: وليم بن الورد البرونسي، دار بن قتيبة، الكويت (د، ت) ص:198.

[47]- الضّبّي المفضّل بن سلمة: الفاخر في الأمثال، ط1، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011 ص:77.

[48]- أحمد أبو السّعد: أغاني ترقيص الأطفال، ص:52.

[49]- أحمد زلط: أدب الطّفولة (أصوله ومفاهيمه) ط4، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص:60.

[50]- إلهام عبد الوهاب المفتي: صناعة اللغز المنظوم في الأدب العربي، مجلّة جامعة أم القرى لعلوم اللّغة وآدابها العدد:11، نوفمبر 2013، ص:120.

[51] - عبد الحي كمال: الأحاجي والألغاز الأدبية، ط2، نادي الطائف الأدبي السّعودية، 1401هـ، ص:229.

[52] - أحمد زلط: أدب الطّفولة (أصوله ومفاهيمه) ص:61.

[53]- يحي بن حمزة العلوي اليمني: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مراجعة: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص:430.

[54]- عبد الحي كمال: الأحاجي والألغاز الأدبية، ص:138.

[55] - المرجع نفسه، ص:257-258.

تاريخ الارسال:2018-02-11

تاريخ القبول: 2018-05-09

تاريخ النشر: 2018-06-02